المطرب من أشعار أهل المغرب

لابن دحية

ذى النسبين ابى الخطاب عمر بن حسن

المتوفى سنة ٦٣٣ هـ

بتحقيق

الأستاذ إبراهيم الأبيارى

مدير إدارة نشر التراث القديم

الدكتور حامد عبد المجيد

وكيل إدارة نشر التراث القديم

الدكتور أحمد أحمد بدوى

مدرس بكلية دار العلوم

راجعه

الدكتور طه حسين

دار العلم للجميع

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

الإهداء

هذا كتاب يعنى أُمتين : العرب والأسبان ، إذ هو يعرض حقبة مشتركة من تاريخهما .

وكم وددْنا لو نَقلناه إلى اللغة الأسبانية ، ولكن الأسباب لم تُسعف ، فلا أقلَّ من أن نُهديه إلى الأُمة الأسبانية عن الأُمة العربية ، توثيقاً لصلة قديمة ، وتمكيناً لثقافة نحن وإياهم فيها قَسيمان .

إبراهيم الابيارى

تعريف بالمؤلف والكتاب

بقلم

ابراهيم الابيارى

الى ذلك التراث الخالد الذى نرجو له بعثاً وشيكا يلم شعثه ، ويُرمّ مُرْتثّه ، ونحفظ فيه للأبناء موروث الآباء ، يفطّنهم ويعظهم ويروّيهم : نهدى جهدًا ربما ردّ النفوس إلى طمأنينة بأنّا مُدرِكون .

تمهيد :

كان ذلك منذ أعوام نَزرة خلتْ حين سألنى صديقاى : حامد وأحمد ، أن نتضامّ على تحقيق « المطرب » . وكنت بين إيمان بنَفْع الكتاب حافز ، ورأى بأتّداع الخطيات الفردة صارف . فما أكثر ما يستهدف المعنَّى بها . ولكن سَرعان ماغَلب الإيمانُ الرأى ، ووجدنا فى مشاركة المؤلف غيرَه ، أخذا وإعطاء ، ما يعوّضنا هَوْنًا مَا عمّا نفقده للأصل من أشباه .

وصَرف الدهر فإذا أنا بمنأًى عن الزميلين بعيد ، وإذا الشُّقة الفاصلة ، دونها تبادلُ العون فى يُسر وخفّة . وتمتد الأيام والكتاب حَبيس طَبْع ، على مُمضّة منّا ومكروهة .

ثم يأذن الله فيتّصل ما انقطع ، ويُكتب «للمطرب» أن يَظهر بعدما تغيّبناه .

وإنها لمعذرة يستوحيها قومٌ من أمر الكتاب على موصولة . فما أوجبَ العذر علينا لهم ، وما أحراهم أن يتبيّنوه .

ابن دحية

نسبه :

هو ذو النسبين — فيما يزعم — أُمه — كما يقول ابن خلكان — أَمةُ الرحمن بنت أبي عبد الله بن أبي البسّام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب .

وأما هو ، فعُمر بن الحسن بن علىّ بن محمد بن الجُمَيّل[1] بن فَرْح[2] بن خَلف ابن قُومس[3] بن مَزْلال[4] بن مَلَال[5] بن بَدر بن أحمد بن دَحْية[6] بن خَليفة ابن فَرْوة الكَلْبىّ الأندلسى البَلَنسى الدانى . وكان يكنى أبا الخطّاب ، وأبا الفضل ، وأبا حَفص ، وأبا على .

وهكذا يجعل نسبه إلى «دحية» الصحابى المعروف ، شبيه جبريل عليه السلام، وكان ينزل فى صورته . كما يرفع نسبه من أُمه إلى الحسين عليه السلام ، فوالدة «الجميل» هى ابنة الشريف أبى البسام العلوى الحسنى ، كما ترى .

وإلى هذا يشير ابنُ دحية فى عينيته التى مَدح بها السلطانَ الكامل :

بقيتَ لعبدٍ جَدُّه دحْيةُ الذى ... يُشابه جبريلٌ له ويُضارِعُ
وجدَّتُه الزَّهراءُ بنتُ محمد ... عليه السلامُ الدائم المُتتابع

---

(١) بضم الجيم وفتح الميم وتشديد الياء ، تصغير « جمل » .
(٢) بفتح الفاء وسكون الراء .
(٣) بضم القاف وفتحها وسكون الواو وكسر الميم .
(٤) بفتح الميم وسكون الزاى .
(٥) بفتح الميم وتشديد اللام ألف .
(٦) بفتح الدال المهملة وكسرها وسكون الحاء .

والمؤرّخون يكادون يُجمعون على بُطلان نسبته إلى « دحية » ، فالعماد الحنبلى فى « شذرات الذهب » . حين تَرجم له يقول : « ودخل دمشق فال إليه الوزير ابن شُكر ، فسأله أن يجمعَ بينه و بين الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكِندىّ . فاجتمعا وتناظرا وجرى بينهما البَحْث ، فقال له الكِنْدىّ : أخطأتَ ! فسفه عليه . فقال الكِندىّ : أنت تكذب فى نَسبك إلى دحية الكلبى ، ودحية بإجماع المحدِّثين ما أَعقب ، وقد قال فيك ابن عُنين : [1] .

دحيةُ لم يُعْقِب فكم تَنْتمى إليه بالبُهتانِ والإفْك
ماصحّ عند الناسِ فيه سِوَى أنّك من كَلْب بلا شكّ

والذَّهبى فى « تذكرة الحفاظ » حين ينقلُ هذه النِّسبة ، يُعقِّب عليها بما يُفيد تَشكّكه فيها ، فيقول : « يذكر أنه من وَلد دحية الكلبى ، وأنه سِبط أبى البسّام » [2] .

ولاَ يبعُد قولُ ابن الأبّار عن هذا .

و يقول ابنُ حَجر العَسقلانى فى « لسان الميزان » بعدما ساق نَسبه : « فهذا نسب باطل بوجوه :

أحدها : أنّ دحية لم يُعقب .

الثانى : أنّ على هؤلاء لوائحَ البربرية .

وثالثها : بتقدير وجود ذلك ، قد سَقط منه آباء ، فلا يمكن أن يكون بينه و بينه عشرة أنفس » .

---

(١) هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الأنصارى الدمشقى ، ولد سنة ٥٤٩ هـ ، وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ وله ديوان مطبوع بتحقيق خليل مردم بك .

(٢) الذى فى التذكرة : « أبى البشام » .

ويعود الذَّهبي فى « سير أعلام النبلاء » بعد أن ذَكر هذا النَّسب السابق جُملةً ، فيقول : «هكذا ساق نسبه ، وما أبعده من الصحة والاتصال، وكان يكتب لنفسه : ذو النِّسبتين ، بين دحية والحسين » .

ويقول: « ونسبه شيء لاحَقيقة له ، قرأتُ بخطّ ابن مَسْدى : كان أبوه تاجراً يُعرف بالكابي ، بين الفاء والباء ، وهو اسم موضع بدانية » .

ويقول ابن مَسْدى أيضا : «رأيت الحُذّاق من علماء المغرب لا يزيدون على ذكْر جدهم « فرح » إلا التعريف ببنى الجميل . وقد كان أخوه أبو عمرو عثمان يلقب بالجميل بن الجميل » .

ويقول ابن حجر : « والجميل : تصغير للجمل ، بالعبارة المغربية » .

ويقول ابن عبد الملك فى الصلة : «وكان يسمى نفسه ذا النسبين ، وهو مغربى من أهل سبتة . وأظنه كان قاضيها» .

وثَم شيء يتصل بالحديث عن نسبه ، وهو الحديث عن توثيقه فى روايته . فكلاهما يُلقى ضوءًا على الآخر ويَعضُده . ومَن يجوز عليه التَّخليط فى واحدة يُزنّ بها ، حرىّ بالتُّهمة غيرُ مُبرَّأ منها مع الثانية .

نسمع لسِبْط ابن الجوزى يقول عنه : «كان فى المحدِّثين مثل ابن عُنين فى الشعراء ، يقع فى أئمة الدِّين ، ويزيد فى كلامه ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه. وكان الكامل مُقبلًا عليه ، فلما انكشف حالُه أعرض عنه ، وأخذ منه دار الحديث وأهانه » .

ويقول ابنُ واصل : « وكان أبو الخطّاب مع فَرط معرفته بالحديث متَّهما بالمجازفة فى النقل ، وبلغ ذلك الملكَ الكاملِ ، وقد بنى له دار الحديث بالقاهرة ،

فأمره أن يعلّق شيئاً على أحاديث الشّهاب ، فعلّق كتاباً تكلّم فيه على أحاديثه وإسناده ، فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد حين : قد ضاع منّى ، فعلّق لى مثلَه . ففعل ، فجاء فى الثانى بمُناقضة الأول . فعلم السلطان صحّة ما نقل عنه . وعَزله من دار الحديث ، ثم ولّى أخاه أبا عمرو عثمان » .

وينقل الدلجى أحمدُ بن علىّ صاحب « الفلاكة والمفلوكون » : « قال ابنُ نقطة : « كان يدعى أشياء لا حقيقة لها . ذكر لى أبو القاسم بن عبد السلام ، وهو ثقة ، قال : نزل عندنا ابن دحية ، فكان يقول : أنا أحفظ صَحيح مُسلم والترمذى ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذى ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات ، فجعلتها فى جزء ، ثم عرضت عليه حديثا من الترمذى . فقال : ليس بصحيح . وآخر فقال : لا أعرفه . ولم يعرف منها شيئا . فأفسد نفسه بذلك » .

ويَروى ابنُ خلّكان ، وهو يتحدث عن الأسعد بن مماتى : « وكان الحافظ أبو الخطاب بن دحية ، المعروف بذى النسبين رحمه الله تعالى ، عند وصوله إلى مدينة إربل ، ورأى اهتمام سُلطانها الملك المعظَّم مظفّر الدين بن زين الدين يَعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، صنّف له كتاباً سماه : التنوير فى مدح السيراج المنير . وفى آخر الكتاب قصيدة طويلة فى مَدح مظفَّر الدِّين ، أولها :

لولا الوشاةُ وهمُ   أعداؤنا ما وَهِمُوا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه . وسمعنا نحن الكتاب على مظفَّر الدين فى شعبان سنة ست وعشرين وستمائة ، والقصيدة فيه ، ثم بعد ذلك رأيت هذه القصيدة بعينها فى مجموعة مَنسوبة إلى الأسعد بن مماتى المذكور ، فقلت : لعل الناقل

غَلط . ثم بعد ذلك رأيتُها فى ديوان الأسعد بكمالها ، مَدح بها السلطانَ الكامل . فقَوى الظن . ثم إنى رأيت أبا البركات بن المُستوفى قد ذكر هذه القَصيدة فى تاريخ إربل عند ذكر ابن دحية ، وقال : سألتُه عن معنى قوله فيها :

يَفديه مِنْ عَطا جُما ... دى كفِّـه المُحَرَّمُ

فما أحار جوابا ، فقلت : لعلَّه مثلُ قول بعضهم :

تَسمَّى بأسماء الشُّهور فكَفُّهُ ... جُمادى وما ضَمَّت عليه المُحَرَّمُ

قال : فتبسّم وقال : هذا أردتُ . فلما وقفتُ على هـذا تَرَجَّح عندى أن القصيدة للأسعد المذكور ، فإنها لو كانت لأبى الخطّاب لما توقّف فى الجواب» .

ويقول الحافظ الضياء : « لم يُعجبنى حالُه ، كان كثيرَ الوقيعة فى الأئمة » ، ثم قال : « أخبرنى إبراهيم السنهورى أن مشايخ المغرب كتبوا له جَرْحه وتَضْعيفه » .

ويقول ابن النجار : « رأيت الناس مُجتمعين على كذبه وضعفه وادعائه سَمَاع ما لم يسمعه ، ولقاء مَن لم يَلْقه ، وكانت أمارة ذلك عليه لائحة . وحدَّثنى بعضُ المصريين ، قال : قال لى الحافظ أبو الحسن بن المُفضَّل ، وكان من أئمة الدين ، قال : كُنَّا بحضرة السلطان فى مجلس عام وهناك ابنُ دحية ، فسألنى السلطانُ عن حديث ، فذكرتُه له . فقال لى : مَن رواه ؟ فلم يحضُرْنى إسناده فى الحال . فانفصلنا ، فاجتمع بى ابنُ دحية فى الطريق ، فقال لى : ما ضَرّك لمّا سألك السلطانُ عن إسناد ذاك الحديث ، لِمَ لَمْ تذكر له أىَّ إسناد شِئْتَ ، فإنّ مَن حضَر مجلسَه لا يعلمون هل هو صحيح أم لا » .

ويمضى ابنُ النجّار ، فيقول : « وكان صديقُنا إبراهيم السنهورىّ دَخل إلى الأندلس . فذَكر لمشايخها حال ابن دحية وما يدَّعيه ، فأنكروا ذلك وأبطلوا لقاءه لهم ، وأنه إنما اشتغل بالطلب أخيراً ، وأنّ نَسبه ليس بصحيح » .

وكتب السّنهورى بذلك محضرًا ، وأخذ خُطوطهم فيه . فعلم ابنُ دحية بذلك ، فشكاه للسلطان ، فأَمر بالقبض عليه ، فضُرب وجُرِّس على حِمار ، وأُخرج من القاهرة . وأَخذ ابنُ دحية المَحضر فخرقه » .

ويحدِّث أبو العلاء الأَصبهانىّ علىُّ بن الحسن ، وهو ما هو جلالةً ونُبلا ، يقول : « لمّا قَدم ابنُ دحية علينا أَصبهان ، نَزل على أبى فى « الخانقاه » فكان يُكرمه ويُجله ، فدَخل على والدى يوماً ومعه سجّادة ، فقبَّلها ووَضعها بين يديه ، وقال : صلَّيتُ على هذه السجادة كذا وكذا ألفَ ركعة وختمتُ القرآن فى جَوف الكعبة مَرّات . قال : فأَخذها والدى وَقبَّلها ، ووَضعها على رأسه وقَبلها منه مُبتهجًا بها . فلما كان آخر النهار حَضر عندنا رجلٌ من أهل أصبهان ، فتحدَّث عندنا ، إلى أن اتفق أن قال : كان الفقيه المَغربىُّ الذى عندكم اليوم فى السُّوق اشترى سجادة حسنة بكذا وكذا . فأَمر والدى بإحضار السجَّادة . فقال الرجل : إى والله ! هذه . فسكت والدى ، وسقَط ابنُ دحية من عنده » .

ويقول ابن كثير : « قد تكلّم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونَسبه بعضهم إلى وَضْع حديث قصَر صلاة المغرب . وكنتُ أودّ أن أقف على إسناده ليُعلَم كيف رجالُه . وقد أجمع العلماء — كما ذكره ابن المنذر وغيره — على أن صلاة المغرب لا تُقْصر .

واتفق أنه وصل فى جمادى الأولى سنة ٦١٦ هـ إلى غزة ، فخرج كل من فى غزة بالأسلحة والعصى والحجارة إلى الموضع الذى هو فيه ، وضربوه ضربا شديدا بعد أن انهزم من كان معه » .

وكذلك نجد ابن عبد الملك فى الصلة ، وما هو بالمشرق ، يقول فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن حريث : « نسبه أبو الخطاب ابن الجميل فى معجم شيوخه الذى جمعه أبو الخطاب ، فزاد بعد حديث ، فقال : ابن عاصم بن مضاء بن مهند بن عمير اللخمى . فوافقه عليه إلا فى ذكر مهند ابن عمير ، فإنه أنكرهما . فقال له أبو الخطاب : يا سيدى ، هما جداك ذكرهما فلان . فتوقف الشيخ » .

ويقول ابن عبد الملك : « وهذا السند منقطع لبعد عصر « أحمد » من عصر «حريث » . فقد ذكر بعض من صنف للناصر بن المطرف عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس فى سنة ثلاثين وثلثمائة وأخبار المرادبين ومن دخل معهم الأندلس ، جماعةً من اللخميين ، منهم . النجاشى بن عاصم بن حريث بن عاصم ابن مضاء بن مهند . فلو صح هذا لكان النجاشى عم جد صاحب الترجمة . وهو مقطوع ببطلانه فى العادة . فلعل ذلك من تركيبات أبى الخطاب » .

هذا هو أبو الخطاب على لسان من تنقصوه ، فكذبوه فى نسبه وضعّفوه فى نقله ، بل وعابوه بالتدليس ورموه بالكذب ، وساقوا كما رأيت قصصا على لسان موثّقين ، عند الله علمُها . وكأنهم كلهم من المشرق ، إلا القليل .

غير أننا نرى ابن جَرير الطَّبرى يذكر فى حوادث سنة ست وعشرين ومائة ، قال : « ولما استوثق ليزيد آبن الوليد على الطاعة أهل الشام ، ندب — فيما قيل لولاية العراق — عبد العزيز بن هارون بن عبد الله بن دحية بن خليفة الكلبى . فقال له عبد العزيز : لو كان معى جُند لقبلتُ . فتركه وولّاها منصور بن جمهور » .

وفيما يرويه الطبرى — أن صح — مقنع لمن ينبزه ، ويرد عليه نسبته إلى دحية . فدحية — فيما يرويه الطبرى — قد أعقب .

هذا عن نَسبه ، له فيه وعليه ، وكذا الحديث عن روايته ، فلم يعدم ابنُ دحية مَن أثنى عليه ، وإن لم يبلغ ذلك مبلغ التبرئة مما زُنّ به .

فابن حجر يقول : « ورأى المغاربة فى أبى الخطاب غير رأى أهل ديار مصر » .

ويمضى فينقل عن ابن عساكر فى رجال مالقة ، فى ترجمة ابن دحية « ... إلا أنه كان يتهم فى الرواية ، لأنه كان مكثارا » .

ثم يعقب على هذا القول فيقول : « فهذا مغربى وافق المصريين » .

ويقول المَقَّرى فى النفح : « كان من كِبار المحدّثين . ومن الحُفَّاظ الثِّقات الأثبات المُحصِّلين »

ويقول الغبرينى فى « عنوان الدراية » قد رأيتُ له تَصنيفا فى رجال الحديث لا بأس به ، وارتحل الى المَشرق فى دولة بنى أيوب فرفعوا شأنه وقرَّبوا له مكانه ، وجمعوا له علماء الحديث وحضروا له مجلسا أقروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والإتقان والفَهم . وذكروا أحاديثَ بأسانيد حوَّلوا مُتونها ، فأعاد المتون المُحوّلة ، وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هى عليه من متونها الأصلية » .

ويقول أبو جعفر بن الزُّبير فى صلة الصلة : وكان مُعتنياً بالعلم مشاركا فى فنون منه ، مجتهدا مُعتنيا بالأخذ عن الشيوخ ، ذاكراً للتاريخ والأسانيد ورجال الحديث والجَرْح والتَّعديل »

ثم يقول : « وعرفنى بحاله وحال أخيـــه ابن عمرو عثمان ، الشيخان أبو الحسن الغافقى وأبو الخطاب بن خليل ، وكانا قـد صحباهما طويلا وخبراهما جملة وتفصيلا ، الا أنهما ذكراهما بانحراف فى الخلق وتقلب لم يَشِنْهما غيرُه ، ووصفاهما مع ذلك بالثّقة والعدالة والسّداد والاعتناء التام » .

ويقول ابن خلكان : وكان أبو الخطاب من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء مُتقنا لعلم الحديث النَّبوى وما يتعلّق به . . . وشُغل بطلب الحديث فى أكثر بلاد الأندلس الإسلامية . ولَقى بها علماءها ومَشايخها . ثم رحل منها الى بَرّ العُدْوة، ودخل مَرّاكش واجتمع بفُضلائها ، ثم ارتحل الى إفريقية ومنها الى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق ، وسمع ببغداد وسمع بواسط . ودخل الى عراق العجم وخراسان وماوالاها وما زندران ، كُل ذلك فى طلب الحديث والاجتماع بأئمته والأخذ عنهم ، وهو فى تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه » .

ويقول ابن الأبار : « وكان بصيرا بالحديث مُعتنيا بتَقييده مكبًّا على سماعه » .

وقول القائلين فيه كما ترى، فريق مَشرقىّ منهم: الذَّهبي، وابن كَثير، وابن تغرى بردى، وابن حجر، وابن واصل، يميلون لذكر مثالبه، ولا يذكرون له الخير إلا والنقيصة فى إثره، ومعهم نفر من المغاربة والأندلسيين ، كابن عساكر ، وابن عبد الملك .

وفريق أندلسى مغربى ، وفيهم: المقرى، وابن الأبار ، وابن الزبير ، والغبرينى ؛ يرفعون قدره ، وينوهون بشأنه ، ويلتمسون لنقـــد ناقديه عذره فيه ، فيقول المقرى : « وإن الناس فيه معتقد ومنتقد . وهكذا جرت العادة فى حق القريب المنتسب للعلم :

* وعند الله يجتمع الخصوم *

ولعلك تعرف أن أبا الخطاب كان ظاهريًّا ، ذكرها له المقرّى فقال : « وهو يُعرف به » : « بالظاهرى المذهب » .

وإن من المعتنين بآبن دحية من يعزو هذا القَدْح وذاك المدح لذاك . وتكاد تكون علّتها غير تلك . فظاهريّة آبن دحية ، إن ثبَتت على لسان المقرّى ، فقد وصَفه ابنُ الزُّبير بغيرها ، فقال : « وكان سُنّيًا مجانبا لأهل البِدَع » .

فليس الأمر أمرَ مذهب إذن ، ولكنّه شيء أعدلَ من هذا وأصحّ ، فعلْم رواية الحديث مشرقيّ المنبت ، وبالشرق أعلامُه وشُيوخه ، والتّعديل والتجريح صناعتُهم ، عُنوا بها وعَنَّوا أنفسهم . لم يعلم المَغرب ولا الأندلس عِلْمهم إلا بأخرة ، فكان فيه لاحقًا ، وعنهم آخذا .

والذين جَرَّحوا آبنَ دحية ، وهم من هذه المدرسة مدرسة الحديث ، كالذهبي وابن حَجر ، عنهم نَقل المؤرِّخون . وأمّا الذين عدَّلوه ، فهم بين مؤرِّخ كالمقرّى ليس هذا فنّه ، أو محدّث مؤرخ كآبن الزبير وآبن الأبار ، لم يبلغ مبلغ المشارقة فى ذلك استقصاءً وعُموما .

ثم لا تنس أنّ ابن دحيةَ ، إن كان بالغرب مَنْبته ، ففى الشرق آزدهاره . ومع الثانية الرأىُ له أو عليه .

وابن دحية كان على شيء مما وصفه به ثالبوه ، لا شك فى ذلك ، ولم يفقد شيئا من الخير الذى جاء على لسان مطريه .

ولم يكن ثانيهما تَعصُّبًا له ، كما لم يكن أولهما تعصُّباً عليه ، وإنما كان للذى ذهبوا إليه من هذا التقصّى فى العلم والتحرّى فيه .

وما أكثر ما لقى المحدثون من رجال النقد ، وما أكثر ما وُضع من الكتب فى ذلك ، وما أقل المبرأ منهم الموثَّق فى غير مأخذ ولا هَنَة . ولم يكن ابن دحية

غير واحد من هؤلاء . ولكنه أراد أن يبزّ قُطر قطرا ، لا فَرَدٌ فرداً ، فحمل عبئا كلّفه شيئا من الشطط لم يَقْدر له قَدْره ؛ فترك خصومه يعدُّون عليه الكثير .

مولده ووفاته :

يذهب المقَّرى إلى أن مولد «ابن دحية» كان فى ذى القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ويقول ابن خلكان : « وكانت ولادته فى مستهل ذى القعدة سنة أربع — أوثمان — وأربعين وخمسمائه » .

ويقول : « وأخبرنى بعض أصحابنا الموثوق بقولهم : أنه سأل ولَده عن مولد أبيه ، فقال : فى ذى القعده من سنة ثمان وأربعين » .

ثم قال : « وأخبرنى ابن أخيه قال: سمعت عَمِّى أبا الخطّاب غير مرة يقول : ولدت فى مستهل ذى القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة » .

هذا مبلغ ما قيل عن مولده . أما وفاته فكانت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . وأن ذلك كان فى يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول، عن سبع وثمانين سنة ، كما ذكر العماد الحَنْبلى .

على ذلك إجماع المؤرخين ، غير ابن الزبير ، فإنه لم يَعْرفها يقينا ، فقال : « وتوفى قبل سنة ٦٤٠ » .

وكانت القاهرة مثواه ، وفى سفح المقطم مقره الأخير .

نشأته وحياته :

لا نملكها كلمة صريحة تقفنا على اسم البلد الذى تلقى «ابنَ دحية» وليداً، وضَمّه صغيراً حتى شبّ وأيفع .

فابن الأبار يقول عنه : « الدانى الأصل السبتى » وهى عبارة الذهبى أيضا . والعماد الحنبلى يصفه بقوله : « الدانى ثم السبتى » .

ونعود إلى أبى جعفر بن الزبير فنقرأ له فيه : « من أهل سبتة » .

ويوثّقه ابنُ حجر العسقلانى ، بقوله : « وهو مغربى من أهل سبتة ، وأظنه كان قاضيها » .

وذكره آبن تغرى بردى مَرَّتين ، قال فى أولا هما : « أبو الخطاب بن دحية المغربى » . وذكره فى ثانيتهما بلقب « البلنسى » .

وبهذا اللقب الأخير « البلنسى » ناداه العُمرىّ فى « مسالك الأبصار » والذهبى فى « سير النبلاء » وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » . ونقله المقرى فى « النفح » عن هذا الأخير ، فقال : « وهو بلنسى ، كما قال ابن خلكان وغيره » .

وعندى أن صلته بدانية ؛ فتكاد تكون من قِبل أبيه ، وقد تُبعد ، فأبوه : الحسن بن علىّ ، كان تاجرا بها .

ويذكر ابن حجر أن كابيّته جاءت من « كاب » بين الفاء والباء ، موضع من ساحل دانية .

وينقل الذهبى عن ابن مَسْدى : « كان والد أبى الخطاب تاجرا يعرف بالكابى ، بين الفاء والباء ، وهو اسم موضع بدانية ، وكان أبو الخطاب يلقب ، الكافى ، والكابى معا ، إشارة إلى الموضع وإلى النَّسب » .

ونص ابن الأبار والذهبى يحملان ما ذَهبنا إليه من ظن . وما قول الحَنبلىّ عنهما ببعيد .

ويُدنينا من هذا الظن ، ويكاد يُحيله يقيناً ، قولُ ابن الزبير وابن حَجر ، ثم ما ذكره آبن تغرى بردى .

وثَمَّ دليل يحمله « المطرب » نفسه ، فآبن دحية صاحبه ، يذكر عن نفسه أنه لقى بالمغرب بمرّاكش منه أبا بكر العبدرى محمد بن عبد الله سنة خمس وستين وخمسمائة[1] . ومن قبل تلك السنة لقى بمراكش أيضا سنة أربع وستين وخمسمائة أبا عبد الله بن حيوس محمد بن حسين[2] .

أى حين كان « أبو الخطاب ، آبن عشر وثمانية ، أو أعْلَى من ذلك بقليل ، ولمّا يُتم العشرين ، فأخذ عن هذا وذاك وسمع منهما .

ثم عرفناه فى « دانية » قاضياً ، ولى قضاءها مَرّتين ، ثم فُصل عنها إلى غير عودة . وما نظنُّه ولى قضاء «دانية» فى سن قبل تلك التى لقيناه بها فى المغرب .

ولم يذكر لنا هو أنه سمع بدانية فى سن مُبكرة ، كما سمع بالمغرب ، الذى كان وجوده به سابقا فيما يبدو ، ومانحب أن نَقطع .

وأما عن نِسْبته إلى « بلنسية » فسوف نسكُت عنها كما سكت آبن خلّكان ، وهو صاحبها على الأرجح ، فما بين أيدينا عنها مزيد . ولعل إلمامَه بها أربى على إلمامه بغيرها ، أو كان له بها واصلة تَخفى .

نحب أن نزيد أن أبا الخطاب لم يترك المغرب — فيما نظن — إلى الأندلس قبل أن يَشهد جنازة شيخه «ابن شقريق» بسبتة سنة ٥٧١ هـ ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنا رأيناه بعد ذلك يَستمع إلى ابن خير بإشبيلية سنة ٥٧٢ هـ ، ولم نَرَ له ذكراً قبل هذا فى الأندلس ، فيما ذكره هو لنا أو ذكره غيره عنه .

---

(١) أنظر صفحة ١٩٨

(٢) « « ٤٠٠

ولا ندرى متى كانت ولايته لقضاء دانية ، وإن كنا نرى أنها لم تكن قبل هذا، وليه بها مرة أولى ، وكان هـذا أولَ ماولى ، كما يقول صاحبُ سير النبلاء ، ثم وليه مرة ثانية ، كانت بينهما فترة يسيرة ، ليس فى ذلك شك ، ثم صُرف عنه .

يذكر ذلك ابن حجر ، فيقول : « وقـد كان ولى قضاء دانية ، فأُتى بزامر فأمر بثَقْب شدقه وتشويه حلقه . وأخذ مملوكًا له فجّبه ، واستأصل أنثييه . فرُفع إلى المنصور ملك الوقت ، وجاءه النَّـذير فاختفى ونَجرج خائفاً يترقّب ، وخرج نحو إفريقية وشرَّق ثم لم يعد » .

ومن هنا تبدأ رحلته عن الأندلس ، بعد ماطوّف بها ماطوّف ، يستمع إلى شيوخها ويروى عنهم .

يقول صاحب سير النبلاء : « فرحل ولقى بتلمسان أبا الحسين بن أبى حيون، فحمل عنه وهو فى تونس سنة ٥٩٥هـ ، ثم حج وكتب بالمشرق بأصبهان ونيسابور، وعاد إلى مصر فاستأدبه الملك العادل لابنه الكامل ، ولىّ عهده ، وأسكنه القاهرة» .

ويقول الذهبى « فرحل عنها ، وحمل بتلمسان عن قاضيها ابن أبى حيون . وحدث بتونس فى سنة خمس وتسعين . وحج وكتب بالمشرق وبأصبهان وبالعراق ونيسابور، وأدرك أبا جعفر الهمدانى ، وأبا الفتح الفراوى ، والحافظ أبا الفرج بن الجوزى، وعاد إلى مصر » .

ويقول ابن خلكان : « ثم رحل عنها — أى عن الأندلس — إلى بر العدوة . ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها ، ثم ارتحل إلى إفريقية ومنها إلى الديار المصرية — فى زورته الأولى — ثم إلى الشـام والشرق والعراق ، وسمع ببغداد من بعض أصحـاب ابن الحصين ، وسمع بواسط من أبى الفتـح محمد بن أحمد

ابن الميدانى ، ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران ... وسمع بأصبهان من أبي جعفر الصيدلانى، وبنيسابور من منصور بن عبد المنعم الفراوى ، وقدم مدينة إربل فى سنة أربع وستمائة، «وهو متوجه إلى خراسان ، فرأى صاحبها الملك مظفر بن زين الدين مولعا بعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عَظِيمَ الاحتفال به ، فعمل له كتابًا سماه : التنوير فى مولد السراج المنير . وقرأه عليه بنفسه . وسمعناه على الملك المعظم فى ستة مجالس ، فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة » .

هذا هو تطواف أبي الخطاب فى البلاد بعد هجرته عن الاندلس، وكانت إربل آخر المزار ، ألقى بعدها بمصر عصا التسيار .

فهو قد جاز مصر إلى الشرق ، ومالبث أن عاد إليها ثانية ليقضى فيها مابقى من عمره. وقد لا يكون الأمر أمر آستقرار ،فى مصر من هذه الأمصار. بل كانت غدوات وروحات يطول معها المقام أو يقصُر . ومصر كانت المآب والمنزل .

ويذكر ابن خلكان أن « العادل » استأدبه لابنه الكامل ، والكامل لم تعرفه الحياةُ إلا عام ٥٧٦ . وعندها كان أبو الخطاب بين ربوع الأندلس ، أو لعله كان عندها فى دست قضاء دانية . وهو حين حَلّ تونس راحلاً عن الأندلس حلها فى عام ٥٩٥ ، كما حدثنا الذهبي فى سير النبلاء ، فرحلته إلى مصر كانت بعد عامه ذاك .

وفى هذا العام نفسه استدعى الملك « العادل » ولده «الكامل» إلى مصر ، فخرج من دمشق فى الثالث والعشرين من شعبان ، وودّعه أخوه الملك المعظّم عيسى إلى رأس الماء—موضع بالقرب من حوران—وكان العماد الكاتب فى صحبته، فأنشد:

دعتْك مِصْر إلى سُلطانها فأجب دُعاءها بنُهوضٍ غير مكذوب

ووصل «الكامل» مصر فى عاشر شهر رمضان ، وتلقاه أبوه «العادل» من العباسية وأنزله فى دار الوزارة . وكان قد زوجه بنت أخيه صلاح الدين ، فدخل بها . وكان مولد «الكامل» سنة ٥٧٣ — وقيل خمس وسبعين ، كما قيل : ست وسبعين — فسنه حين استدعاه أبوه كانت نحوا من اثنين وعشرين عاما ، أو تسعة عشر عاما .

وكان استقلاله بمصر بعد وفاة أبيه « العادل » بعد أن تولاها فى حياة أبيه ، تلك الأعوام التى خلت من مجيئه إليها سنة ٥٩٥ إلى عام وفاة أبيه العادل ، أى سنة ٦١٦ هـ .

وإخال بين هذه وتلك كان اللقاء الأول بين ابن دحية والكامل ، حين استأدبه أبوه له ، ثم كان اللقاء الثانى حين عهد إليه الكامل برياسة المدرسة الكاملية ، دار الحديث الكاملية . وهى التى أنشأها الملك الكامل فى سنة ٦٢٢ ، وكانت ثانى مدرسة عملت للحديث — وكانت أول دار للحديث على وجه الأرض لنور الدين محمود بن زنكى بدمشق — وقد وقف الكامل مدرسته الكاملية على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية [1] .

ويذهب السيوطى فى حسن المحاضرة ، إلى أن الكامل حين بنى المدرسة سنة ٦٢١ هـ جعل شيخها أبا الخطاب .

وأحب أن أعود إلى ابن دحية فأحدثك عن سماعه حديثا جامعا أو قريبا من ذلك ، لتعرف كيف آثره « الكامل » على غيره ، وخصه بهذا المنصب دون سواه من معاصريه وأقرانه .

---

(١) مكان هذه المدرسة بين القصرين من القاهرة ، ولا تزال موجودة الى اليوم بشارع بين القصرين بجوار جامع السلطان برقوق ، وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل . وقد جدد فيها الأمير حسن كتخدا سنة ١١٦٦ هـ . (وانظر الخطط للمقريزى ٢ : ٣٧٥) .

يقول ابن الأبار : « سمع بالأندلس أبا عبد الله بن المجاهد ، وأبا القاسم بن بشكوال ، وأبا بكر بن الجد ، وأبا بكر بن خير . وأبا عبد الله بن زرقون ، وأبا القاسم بن حبيش ، وأبا محمد بن عبيدان ، وأبا العباس بن مضاء ، وأبا محمد بن بونة ، وجماعة .

وقد حدث بتونس بصحيح مسلم عن طائفة من هؤلاء وعن آخرين، منهم: أبو عبد الله بن بشكوال ، وأبو الوليد بن المناصف ، والقاسم بن دحمان ،وصالح بن عبد الملك، وأبو إسحاق بن قرقول ،وأبو العباس بن سيده ، وأبو عبد الله بن عميره، وأبوخالد بن رفاعة ، وأبو القاسم بن رشد الوراق، وأبو عبد الله القباعى، وأبو بكر بن مغاور ، وأبو العباس البلنسى » .

ويقول : « وكان بصيرا بالحديث معتنيا بتقييده ، مكبا على سماعه » .

ويقول المقرى : « كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين،استوطن بجاية وروى بها وأسمع » .

وينقل ابن حجر فيما ينقل عنه : « وكان حافظا ماهرا فى علم الحديث حسن الكلام فيه فصيح العبارة » .

وينقل أيضا : « وكان له معرفة حسنة بالنسبة بالحديث والفقه على مذهب مالك » .

ويقول ابن الزبير : « وكان مجتهدا ومثبتا بالأخذ عن الشيوخ ذاكرا للتاريخ والأسانيد ورجال الحديث والجرح والتعديل » .

ويقول ابن خلكان : «وكان أبو الخطاب متقنا لعلم الحديث النبوى ومايتعلق به . واشتغل بطلب الحديث فى أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ولقى علماءها ومشايخها » .

وقد سقنا قبلُ شيئا من حديث ابن خلكان عن سماع أبى الخطاب بالمشرق .

ويقول الذهبى فى تذكرة الحفاظ: « وسمع بمصر من البوصيرى وطبقته ، وسمع مسند الإمام أحمد بواسط من الميدانى، وسمع معجم الطبرانى كله من الصيدلانى ، وحدث فى سنة ستمائة بالموطأ، وزعم — ولم يدخل فى الأذن دعواه — أنه قرأ صحيح مسلم من حفظه على بعض شيوخه » .

ويقول ابن شهبة : « كان متقنا الحديث » .

ويقول الغبرينى فى عنوان الدراية: «رأيت له تصنيفا فى رجال الحديث لا بأس به ، وارتحل إلى المشرق فى دولة بنى أيوب ، فرفعوا شأنه وقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلسا ، أقروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والإتقان والتفهم . وذكروا أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها ، فأعاد المتون المحوّلة ، وعرّف عن تغييرها، ثم ذكر الأحاديث على ما هى عليه من متونها الأصلية» .

ويذكر له المقرى من شيوخه فى الأندلس : ابن حبيش ، وابن حوط الله ، وأبا الربيع الكلاعى .

ثم لا تنس ولايته القضاء مرتين بدانية من قبل ، ولها ما لها . فهذا كله ، على الرغم مما قيل فيه من تجريح ، لا يسقط الرجل، إذ هو لم يبلغ مبلغ المجرَّحين إلا بعد أن عُدّ فى زُمرة المحدِّثين. وقَلَّ مُحدِّث لم تُعَدَّ عليه سَقطاتُه إلى جانب حسناته.

وقد عرفنا الملكَ « الكامل » ذكيًّا فطنا يُحب العلماء والأماثل ويُلقى عليهم المشكلات ، ويتكلم على صحيح مسلم .

ويزيد ابنُ مسعود الأندلسى الغرناطىّ فى معجمه : « كان الكامل محبا للحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف » .

ويَحكى أن أباه العادل استجاز له « السلفى » قبل موت « السلفى » بأيام .

ويقول الحافظ المنذرى عنه : « وكان معظِّما للسنة النبوية وأهلها راغبا فى نشرها والتمسك بها ، مؤثرا الاجتماع مع العلماء والكلام معهم حضرا وسفرا » .

وهذا أبو الخطاب محدِّث ، له سماع وتحديث أثار عليه المنافسين ، فأخذوا عليه ، وأثبتوا له ، ثم هو خافظ لصحيح « مسلم » كما يدعى .

فاجتمع الرجلان — الكامل وابن دحية — على مؤلَّفة . ومن قبل تولَّى أبو الخطَّاب الكاملَ مؤدِّبا . وما يُدرينا ، فلقد يكون هو الذى غَرس فى نفسه هذا المَيل ، أو قُل : لقد أعدى ميلٌ ميلا ، فنشأ الكاملُ على سُنة شيخه ، وطُبع بطابعه الغالب عليه ، فنشأ المشغولَ بالحديث ، المعنىَّ بأهله . ثم لقد كان الكامل لأبى الخطاب مُجلًّا ، رَعى له تأديبه ، وحَفِظ له حق المتعلِّم للمُعلِّم .

يقول ابن النجار : « وكان الكامل يعظِّمه ويحترمه ويعتقد فيه ، ويتبرك به ، حتى سمعت أنه كان يسوِّى له المدَاس إذا قام » .

إذًا فإلى من يكل « الكامل » بهذه المدرسة إذا لم يُولِّها أبا الخطاب ، حتى نراه يجعلها إرثاً فى آله ، يوليِّها من بعده أخاه أبا عثمان بن دحية ، ثم ابنه شرف الدين بن أبى الخطاب ، بعد أن وَليها المُنذرى عبدُ العظيم فترة .

ويحدث المؤرخون عن تغير « الكامل » عليه ، وعزله إياه عن دار الحديث ، فيقولون : «إن « الكامل » بلغه أن « ابن دحية » غير ثقة فيما يحدث به ، فأمره أن يعلق شيئا على كتاب « الشهاب » . فعلق كتابا تكلم فيه عنه أحاديثه وأسانيده ، فلما وقف الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع شيء من ذلك الكتاب فعلق لى مثله . ففعل . فجاءت فى الكتاب مناقضة للأول . فعرف السلطان صحة ماقيل عنه ، وعزله من دار الحديث ، وولى أخاه أبا عمر وعثمان».

غير أن ابن حجر يعقب ويقول : « وقيل إنما عزله ، لأنه حصل له تغير ومبادئ اختلاط » .

ويكاد يكون ما عقب به « ابن حجر » أولى ، فلقد كان طول المُصاحبة كفيلا بأن يتعرف « الكامل » هذا المَطعن فى أستاذه ، والألسنة من حوله ، ما تَقَرُّ فى أفواهها ، تجريحًا للشيخ بهذا وغيره .

إذًا فابن دحية ترك المدرسة ، ليعتزل الحياة العلمية ، حين بات لاغناء عنده ولا انتفاع فيه . وقد أقعدته السنُّ . والمؤرخون يسكتون فلا يذكرون متى كان عزل هذا بهذه ، وإن كانوا يشيرون إلى أن ذلك لم يكن قبل موت ابن دحية بكثير .

ولم نعرف « أبا عمرو » انتفع بها كثيرا ، فقد مات بعد أخيه بعام أى سنة ٦٣٤ هـ . ثم آلت بعد فترة إلى « شرف الدين بن أبى الخطاب » .

كل ذلك فى حياة « الكامل » . ولو أن أبا الخطاب صُرف منها مجرَّحًا مطعونا ، ما التفت « الكامل » لأخيه أو لابنه يمنحهما رياستها ، وما نظنهما بالغا مبلغه سماعا ودراية .

حظه من اللغة والأدب :

لعل «العمرى» فى «مسالكه» خير من وفَّى «ابن دحية» وصفاً حين يقول: «وَقف للاطلاع على كل ثَنِيّة ، وهَتف للاستطلاع بكل قضية ، وقاد نافر اللغة حتى جعل الغريب قريبا ، والحُوشىّ رَبيبا ، وأَتى بها إلى الحاضرة قَسْرا من باديتها ، وقهرا لها فى تأديتها ، فعادت إلى الحسنى ورقّ كلامها ، ودق حتى خَفى إلمامُها ، وله رسائل حوشية كَتبها لتدلَّ على غَزارة مادته ، وإنارة جادته ، وقد أضربتُ عن ذكرها صفحا ، ولم أسمع لها صَدحا ، لثقل وطأتها على الأسماع ، وشدة مُنافرتها للطباع ، كأنها كلام النائم ، ونَقيق الضفادع فى الليالى العَوائم ؛ تظن أنها ليست مركّبة من الحروف ، ولا دالّة على مَعنى معروف ، على أن له فى أُخرما يخفّ ، ولكنه مما لا يَشف ، ولا يَندى ورقه ولا يرقّ ، فلذلك أيضا ألغيتُها ، وأعرضت عنها فما أردتها ولا ابتغيتها » .

ويتلوه الغبرينى فيقول : «وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حُوشى اللغة عنده مستعملا غالبا عليه . ولا يحفظ الإنسانُ من اللغة حوشيَّها إلا وذلك أضعافُ أضعاف محفوظه من مُستعملها . وكان قَصْده — والله أعلم — أن ينفرد بنوع يَشتهر به دون غيره من الناس ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب ، وانفردوا بالطريق الآخر ، لأنهم انفردوا به واشتهروا فيه ، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب بن دحية الكلبى» .

ويقول المقرى: «له رسائل ومخاطبات ، كلها مُغلقات مقفلات ، وكان — رحمه الله تعالى — إذا كتب اسمه فيما يُجيزه أو غير ذلك يكتب : ابن دحية ، ودحية معاً ، المتشبِّه به جبريل وجبرائيل ، ويذكر ما ينيف على ثلاثَ عشرة لغة مذكورة فى جبريل » .

وإنك لتقرأ لابن دحية فى ثنايا كتابه « المطرب » حديثا سهلا تكاد تنفى به ما يُلصقه به واصفوه بالإغراب . كما تقرأ له فى « النبراس » وينقله عنه المقرى فى « النفح » فيقول: « وما أحسن قول أبي الخطاب بن دحية الحافظ » ثم يسوق ما اقتبس،وهو: «وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان ، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان ، وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد المعمَّر سلمان ، وأعملت منها السير والإغذاذ ، إلى مدينة بغداذ .

فهذا وغيره يدلك على سهولة وخفة ، ماأحق صاحبهما بشيء من الإنصاف .

ولكنه هنا مؤلف يسرد ، لا كاتبا ينثر . وفرق بين صناعة وصناعة . ولقد قرأتَ له سهلَه ، فما أحوجك إلى أن تقع على صعبه :

ذكروا أنه كان له خديم يخدُمه ، واحتاج الوالى إلى تجهيز قِطع فى البحر يبعث بها للمغرب ، فأخذ خَديمَه فى جُملة الغُزاة . فكتب لأبى على بن يرمور والى بِجاية ، وكان مِن أحفظ أهل زمانه باللغة — وكان ابن دحية فى ظلّه — يُنبهه على خَديمه ليسرحه :

«الشيخ الفقيه الأديب الجحجاح الهِرْماس أبوفلان ، جَحمظ الله قعثبان شَفترته . هـذا الغِطريس فى اليَمّ أخذ رجلًا لا يملك حَذْرَفُوتا ، فيرى الزِّبرقانَ فيخاله حُوَّارَى ، ويَرى الجُعَل فيحسبه زَعْبجا . وله قُرحة أُمحشت من الحرّ ، وتعطّل كبرها . فأبعث إلى هذا العَثَرىّ من يَخْضد شوكته . والسلام» .

ويقال إنه لما وصلت هذه أبا علىّ بن يرمور ، لم يَفهم لغتها ، فاستحضر كُتب اللغة وغيرَها ليفهم غَريبها ، فلم تَتضح له إلا بعد أيام ، بعد أن سافرت الأجفان .

هذا مثل له نَفقد أشباهه ، ولكنه وحده يقوم دليلا على تكلفه الإغراب على سماجة . ولعله فيه يقصد إلى المعاياة والتظرف ، ولا سيما والمكتوب إليه فى هذا الشأن – كما تَصفه المراجع – متحذلق ، فلِمَ لا يُثقل عليه أبو الخطاب ويجلب إليه من « هَجره » ويحمل إليه من بضاعته . وما نظن مثل هذا يقوم دليلا على ظلم الرجل ، وغيرُه كثيرٌ ينصفه .

يبقى له بعد صناعة النثر قرض الشعر ، وصف وجدناه له على لسان بعض من أرّخوا له . وما ذكروا له ديوانا مجموعا أو شبه مجموع . وإن كانوا قد أوردوا له مقطوعة أو اثنتين ، وثمت أبيات متفرقة ذكرت له فى ثنايا ما ألّف وبقى لنا .

قال الغبريني ونقل عنه المقرى : « ومن شعر أبى الخطاب ما وقعتُ عليه فى ورقة بخَطّ بعض المشارقة ونصُّه : قال الحسن بن أحمد بن عبد الرحيم البَيْسانى : كتب إلىّ الفقيهُ الحافظ أبو الخطّاب عمر بن دحية ، وأجازنى الروايةَ عنه وشافهنى بالإجازة، قال : كتب إلى السلطان الملك الكامل أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب هذه القصيدة :

مالى أسائل برقَ بارقَ عنكمُ ... من بعد ما بَعُدت ديارى منكمُ
وبمُنْحنَى الأضلاع بل وادى الغَضا ... من مُهجتى ياراحلين نَزلتم
فمحلّكم قلبى وأنتم بالحَشا ... لا بالعَقيق ولا برامةَ أنتم
وأنا المُقيم على الوفاء بعهدكم ... يا مالِكين وفيتُم أو خُنتم

أَظننتُم أنِّى سلوتُ وأننى ... خُنت العُهود نَخُنتم وغَدرتم
هيهات هل يَسلو بذكر مآلكٍ ... مِن حُبكم مَن للغرام مُتيم
أمنازلَ الأحباب أين أحبّتى ... فهمُ إذا جنَّ الظلام الأنجم
ولقد وقفتُ بربع عَزّة مُنشداً ... ياربع أين تُرى الأحبة يَمموا
نَزلوا الحَطيم وماء زَمزم أَوردوا ... نِعَم الحطيمُ بهم ورَقّت زمزم
وسَرَوْا وقد أَسروا الفؤادَ وحَرّموا ... طِيبَ الهُجوع علىّ لمّا أَحرموا
ناديتُهم وهُم المُنى بمنًى وقد ... ضَربوا بها حُمْر القباب وخَيَّموا
لم تَسكنوا البلدَ الحرام وإنما ... حرمَ الفؤاد المُستهام سكنتم
هم فى السَّواد وفى السُّوَيْدا خَيَّموا ... ما أَعرقوا ما أَيمنوا ما أشأموا
وهمُ الذين إذا سُئلت مَن الذى ... تَهواهمُ قلتُ الذين همُ هم
أنا باخعٌ نفسى على آثارهم ... أسفاً فلا خَلَت المنازلُ منهم
أحبابَنا طال المطَال بوعدكم ... لِى بالوصال وطال ليلى فيكم
عُودوا يعود الليلُ صبحاً مُسفراً ... والصبحُ بعدكُمُ بَهيمٌ مُظلم
والذَّنب ذنبى فى الهوى وخَطيئتى ... مِن دونكم وأنا المسىء المُحرم
حكَّمتكم فى مُهجتى فحكمتمُ ... فيها بما شاء الغرام وشئتم
ورحلتمُ بالقلب يومَ رحلتمُ ... وظَعنتم بالصَّبر يوم ظَعنتم
ولقد كتمتُ هواكُمُ حتى وشَى ... سُقمى بذاك ودمعُ عينى المُلزم
والسقمُ يُفصح بالصبابة والأَسى ... والدمعُ يكتُب ما المُعنَّى يكتُم
حاشاكُمُ من أن تجوروا فى الهوى ... ونَعمْ ظلمتم بالبعاد وجُرتُم
والعدلُ بالمَلك الهُمام محمد ... بادى المَنار لكُل من يَتظلّم
عزُّ المُلوك الكامل الشرف الذى ... لعَلائه السبعُ الكواكب تَخدم

فالمُشترى كالمُشترى لسُعـوده   يُمسى ويُصبح حيث أَمّ يُؤمّم
والقوسُ يَرمى عن إرادة عَزمه   غرضَ المقاصد والمَقادرُ أَسْهُمُ
فدَعِ التخرُّس يا مُنجِّم وآتئـد   فالحُكم عندى غيرُ ما قد تَحْكم
ما كوكبُ المصباح ذو التُّرب الذى   فى القُرب من بعد الغروب يُعتِم
رفعت له الأملاك منـه سجية   ملك السماك الرمح وهـو محرم
لـما اغتدى فى الجُند يخدم سابعاً   بهـرام سيّاف النُّجوم الضّيغم
هذا الصحيح من المَقالات التى   فيهـا بمكنون الغُيـوم يرجِّم
لذوى النُّهى والفَهم سرّ حكومة   قـد حار فيهـا كاهنٌ ومنجِّم
وآقصد مرادك حيث صرتَ مظفَّرا   فالله يكلأ والكواكب قُـوّم
وَلْيهنك الشهـرُ السعيدُ تَصومه   وتفوز فيـه بالثَّواب وتَغـنم
فلأنت فى الدنيا كَلَيْلة قَـدْره   قَدْرًا فقـدْرُك فى الملوك معظَّم
أُثنى عليك لأنّ شـكرك واجبٌ   إذ أنت فى الخلق المُغيثُ المُنعم
وكذا الأيادى البِيضُ سُحْب نوالها   تَسْرى كما يَسرى السحابُ المُسجِم
ولِىَ السَّوارى فى عُلاك مدائحـاً   كالشُّهب تُنْجِـد فى البلاد وتُتْهم
فبقيتَ ما بقيتْ حمـامةُ أَيكةٍ   من فـوق غُصن يانعٍ تترنّم
تَحمى فلا مُتهضِّم يَسطـو ولا   متحـرِّم يَشكو ولا مُتظـلِّم

ورأيت نقلَها هنا كاملة لأجمع بين يديك جُملة صالحة للحكم على « ابن دحية » شاعرا . والقصيدة كما ترى فى الكامل سلطانا ، أى بعد عام ٦١٦هـ. وكان ابن دحية عندها شيخاً من الشيوخ قد أشرف على السبعين أو جاوزها .

ويقولون : إن السلطان أجابه بنثر ونظم . وكان من نثره إليه :

«الحمد لله ولىّ الحمد . وقف ولدُه على الأبيات التى حَسُن شعرُها، وصفا دُرّها. وليس من البديع أن يَقذف البحر دُرًّا ، أو يَنظم الخليلُ شعرا . وقد أخذت الورقة لأتنزّه فى معانيها ، وأستفيد بما أَودعه فيها . والله تعالى لا يُخلينا من فوائد فكرته ، وصالح أدعيته . والسلام » .

فهذا كتاب سلطانى ينطق بالبربه ، ضُمَّه إلى ما قيل قبلُ عن رعاية الكامل لأبى الخطاب .

وبعد هذا النثر من كتاب «الكامل» تضطرب المراجع فى ذكر أبيات عينية ، يَقتطع المقرى منها طائفةً ويدّعيها للكامل ، تتمةً لخطابه إلى أبى الخطاب . ثم يذكر بعدها طائفة أخرى من البحر والروى ، يدَّعيها لابن دحية ردًّا على « الكامل » . ويضمُّها «الغبرينى» بعضها إلى بعض ويجعلها كلها لابن دحية بجيب بها «الكامل» .

ويروى «ابنُ دحية» كثرةً من هذه الأبيات فى كتابه المطرب (ص ١٨٤ — ١٨٥) ويمهد لها بقوله: «ولبعض أهل العصر فى قصيد فريد يمدح فيها مولانا السلطان الملك الكامل على ملوك العصر ، أيده الله بالنصر » .

وما نظن أن «أبا الخطاب بن دحية» أراد نفسه تلميحا ، فما عوّدنا هذا فيما يكتب ، وهو الحريص على ذكر لقبه «ذو النسبين» مع كل مَقول له . ولقد اجترأت بذكر «ابن دحية» لها فى هذا الكتاب ، والعودُ إليها من التكرار .

وثَمَّ أبيات أخرى لابن دحية ختم بها « مطربه » يخاطب بها « الكامل » تراها فى (ص٢٤٢—٢٤٣) على روىّ الدال وفيها يقول :

فهاك ما شئت من نظم له سبق كالدر فُصّل فامتازت فرائده

فمن هذه الميمية ثم الدالية وتلك العينية — إن صحت أنها له — نرى أن ابن دحية على حظ من قول الشعر ، لا أظنه يرقى به إلى أن يعدّ من رجاله ؛ إلا أن تقصد أنه من قائليه .

ولعلنا إلى رجعة عن هذا الحكم، إن طالعتنا له الأيام بجديد فيه خاطر وفكرة ، و إلا فنحن عند ما ذهبنا إليه ، والشيء يدلّ قليله على كثيره .

مؤلفاته :

ولقد مضى «ابن دحية» بعد أن نيف على الثمانين، جوّابا للآفاق، قطع الدنيا العربية من مغربها إلى مشرقها ، وجيهاً حيث حل ، بعد أن خلف لنا مؤلفات بقي أكثرها بأسمائها ، وسلمت قلتها من الضياع ، وهى بعد « المطرب » الذى سنتحدث إليك عنه بآخر ، مرتبة على حروف الهجاء :

١ — الآيات البينات فى ذكر ما فى أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات — بهذا الاسم ذكره المقرى. واقتصر «حاجى خليفة» فى «كشف الظنون» على ذكر الشق الأول من اسم الكتاب. ثم ذكره «اسماعيل عارف باشا» «فى هدية العارفين فى أسماء المؤلفين والمصنفين» كاملا كما ذكره المقرى . ويذكره ناسخ «الابتهاج» فى ثبت جعله آخر المخطوط ويزيد: «فى شرف أعضاء النبى صاحب المعجزات» . ويضيف «بروكلمان» أن هناك بالجزائر منه نسخة برقم (١٦٧٩) ويجعل اسم الكتاب «الآيات البينات فى خصائص أعضاء رسول الله» .

٢ — الابتهاج فى المعراج — كذا فى ثبت كتب «ابن دحية» التى أثبتها له كاتب « نهاية السول » فى صفحة أخيرة مستقلة. وقد ذكره السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » (ص ٩١) فقال: «ولأبى الخطاب بن دحية وغيره : المعراج » .

٣ — استيفاء المطلوب فى تدبير الحروب — لم يذكره إلا صاحب الثبت المتقدم فى آخر « نهاية السول ».

٤ — الإعلام المبين فى المفاضلة بين أهل صفين — كذا ذكره المقرى. وسماه الذهبى فى «تذكرة الحفاظ» و«سير النبلاء». وابن الأبار فى «التكملة»: «النص المبين ...». وذكره صاحب الثبت باسم «التبيين فى التفاضل بين أهلى صفين». ومنه نسخة بمكتبة الأسكوريال برقم (١٦٩٣) تحمل هذا الاسم: « كتاب إعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهلى صفين ». وفى أولها : « أما بعد حمدا لله مقدر الحياة والاجال . فإنك سألتنى ... عن أخبار حرب صفين ، وما جرى فيه بين المسلمين المختلفين، وحصل (وفضل) على التعيين . فوجب أن أبين ذلك أحسن تبيين : حدثنا غير واحد من شيوخنا » . ثم استطرد يذكرهم شيخا شيخا ، حتى انتهى إلى أبى غنيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق .

٥ — أنوار المَشرقين فى تنقيح الصحيحين المُشرقين — كذا ذكره صاحب الثبت السالف .

٦ — تاريخ الأمم فى أنساب العرب والعجم — مما ذكره صاحب الثبت أيضا.

٧ — التحقيق فى مناقب أبى بكر الصديق — ذكره اسماعيل عارف باشا فى «هدية العارفين فى أسماء المؤلفين والمصنفين » عند ذكر ترجمة « ابن دحية » .

٨ — تعليق على شهاب الأخبار فى الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية للقضاعى أبى عبد الله بن سلامة المتوفى سنة (٤٥٤ هـ) ذكره صاحب « هدية العارفين » .

٩ ــ تنبيه البصائر فى أسماء أم الكبائر ــ ذكره حاجى خليفة وقال : « وهو مختصر على الحروف. أوله الحمد لله الذى رضى دين الإسلام لعباده المسلمين» وذكر « بروكلمان » أن منه نسخة بمكتبة « ليدن » .

١٠ ــ التنوير فى مولد السراج المنير. وقد مر بك ما دعاه إليه . ويقول حاجى خليفة : « ألفه بإربل سنة ٦٠٤هـ وهو متوجه إلى خراسان، بالتماس الملك المعظم الأيوبى. وقد قرأه عليه بنفسه وأجازه بألف دينار غير ما أجرى عليه مدة إقامته » .

وفى المكتبة الأهلية بباريس منه نسختان برقمى (١٤٧٦، ٣١٤١) .
ويذكر الأستاذ العزاوى ؛ أنه كان عنده منه نسخة ولكنه أضلّها .

١١ ــ سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب ــ ذكره ابن دحية فى النبراس (ص١٩) وقال : « وباقى هذا النسب ذكرته فى كتاب «سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب » .

١٢ ــ شرح أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ــ وقد ذكره المقرى أيضا .

١٣ ــ الصارم الهندى فى الرد على الكندى ــ وكان حضر هو والتاج الكندى عند الوزير ابن شكر فتناظرا . وأورد ابنُ دحية حديثَ الشفاعة . فلما وصل إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام « إنما كنت خليلًا من وراء وراء » فَتح «ابن دحية» الهمزتين. فقال الكندى : «وراء وراء ، بضم الهمزتين». فعسر ذلك على «ابن دحية» ، فصنَّف فى هذه المسألة هذا الكتاب « الصارم » . وبلغ ذلك الكندىَّ فعمل مصنفا سماه « نتف اللحية من ابن دحية » . ذكر ذلك غير واحد ممن ترجموا لأبى الخطاب ونقله حاجى خليفة .

ويذهب العماد الحنبلى إلى أن تأليفه للكتاب كان لتعريض الكندى بنسب ابن دحية ورده عليه .

١٤ — عصمة الأنبياء — مما ذكره صاحب الثبت أيضا .

١٥ — العلم المشهور فى فضائل الأيام والشهور — أشار اليه ابن دحية فى المطرب (ص ٢٢٣) . ومن الكتاب مخطوطة بمكتبة الإمام يحيى باليمن رقمها (٢١٤)أدب ، قديمةالخط ، عدد أوراقها ٣٢٠ وهى ناقصة من آخرها ، وربما كان ماينقصها ورقة أو نحوها . وقد صورتها بعثة مصر إلى اليمن على شريط ، محفوظ برقم (٢٩١) . والمخطوطة فيما تبدو ، قد ذكرت فيها الشهور مرتبة ، وذكر مايتصل بكل شهر من فضائل ، ولغة ونحو وغريب . وقد نقل عنه فى كتابه « النبراس » فى أكثر من موضع فقال (ص ١٠٤) : « وقد تكلمنا على هـذه اللفظة ، أعنى الدجال ، فى المجلد السادس من كتاب « العلم المشهور فى فضائل الأيام والشهور » وذكرنا فيه عشرة أقوال » . ثم قال فى (ص ١٢٣) : « وذكرنا اشتقاق قرمط ونكتا من أخباره المسترذلة أو آثاره القبيحة المستفحلة . فى فضل المحرم فى كتاب العلم المشهور» . ثم قال فى (ص ١٦٩) : « وقد تكلمت على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم . وخرجت طرقه فى كتاب العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم » .

١٦ — مرج البحرين فى فوائد المشرقين والمغربين — ذكره صاحب الثبت . وزاد «بروكلمان» أن منه نسخة بليدن برقم (٩٠٣) .

١٧ — المستوفى من أسماء المصطفى — وقد ذكر حاجى خليفة أن القاضى «ناصر الدين» لخصه فى كراسة . وقال : « ذكره السخاوى فى القول البديع » .

وأشار إليه السخاوى فى الإعلان بالتوبيخ (ص ٩٠) .

وسماه صاحب الثبت « المستوفى فى ... » .

١٨ — مصنف فى رجال الحديث — ذكره الغبرينى فقال: «رايت له تصنيفا فى رجال الحديث لا بأس به » .

١٩ — النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس — وقد قام على تحقيقه ونشره الأستاذ عباس العزاوى . وخرج به على الناس (سنة ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م) . وقدم له ببحث طريف جامع عن الكتاب ومؤلفه، أفدتُ منه كثيرا .

٢٠ — نهاية السول فى خصائص الرسول — ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية رقمها (٦١٢ حديث). بخط قديم حسن، فى ١١٣ ورقة. قال فى أولها «الحمد لله الذى تنزهت عن درك الإحاطة ذاته ... وبعد فإنى ذكر فى هذا الكتاب بإذن الله الذى لا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يلفظ بكلمة إلا بإذنه وحكمه ، ما يسر لى حفظه وعلمه ، وقدر لى شرحه وفهمه ، من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لم تجمع قبل فى مخلوق » .

٢١ — وهج الجمر فى تحريم الخمر — ذكره ابن دحية مرة فى «المطرب» عند الحديث عن « ابن زرقون » (ص ٢١٩) فقال : « وقد تكلمنا على نسبه ولقبه فى كتابنا المسمى بوهج الجمر فى تحريم الخمر » . ثم أخرى (ص ٢٢١) حين ساق أبياتا على روى الميم لابن زرقون وقال : « وقد تكلمنا على هذه الأشعار ومن انتقدها عليه

من العلماء الكبار، واعتذرنا عنها بأبلغ الاعتذار، وذلك فى كتاب «وهج الجمر فى تحريم الخمر» . وكأن الكتاب كما يدلك العنوان ، وتطالعك عباراته ؛ مآخذ على من ذكر الخمر والعيب من القائلين فيها . وهو فى خلال هذا وذاك يترجم للناس، ويعرض لشعر الشعراء منهم .

٢٢ — خطب — ذكرها صاحب الثبت فقال : « وخطب بليغة وغير ذلك » .

فأنت ترى أن كُثْرها لرجل عاش للحديث حقًّا برئ — من الزلات أو لم يبرأ — فُتن بصاحبه محمد صلى الله عليه وسلم فخصّه من بين مؤلفاته بالنصف، أو بما يُربى عليه قليلا. وإن كانت هذه الكتب لم تقع لنا إلا بأسمائها ، فمبلغ القول فيها أنها نفحة مؤمن . أما ما وراء ذلك من علم يُفاد ، أو رأى ينتفع به ، فرهن بالعثور عليها .

ثم هو بعد ذلك مؤرخ، يدلنا فى كتابه «النبراس» على أنه مقل والمؤرخون مكثرون. يقتطف رؤوس الحوادث اقتطافا ، ويغلب عليه الحديث فيسند أخباره، شأن من سبقوه وكان علمهم مثل علمه مزيجا من الفنّين .

وهو بعد هذين بين اللغة والأدب، فى المطرب ، ووهج الجمر ؛ والعلم المشهور . وللحديث أيضا منها جميعا نصيب .

فأبو الخطاب حين ألف صوّر نفسه. وفاض عن زاد مذخور. ولم يقحم نفسه فى غير ما هو له ؛ وما أظنه عنّى نفسه عناء المؤلفين يستقصون لما يجمعون، وينقبون عما يلمون به ، بل كأنى به أملى ما وَعى ، وما أفاده مما إليه سعى . وقد يكون كتابه المطرب خيرَ ما ألف ، وأفسح مجالًا لمتحدّث .

٢٣ — المطرب :

وكتابه المطرب صورة صادقة لهذا، فكَثْرته تحديث ومُشافهة. فهو لا يَقنع إلا أن يسوق السند موصولًا، تدفعه إلى ذلك إمّا صناعة غالبة، أو تقليد لما سبق إليه من

كتب المشارقة فى الأدب والتاريخ . وكان ذلك نهجا غاليا عليهم ، لم يبرأ منه إلى عصر ابن دحية — فيما نظن — أحد .

يحدثنا ابن دجية فى «المطرب» عن «الرمادى» فيقول : « أنشدنى غير واحد من شيوخى رحمهم الله ، منهم الشيخ الفقيه الأجل قاضى الجماعة الأجزل أبو الحسن على بن عبد الرحمن لفظا بمنزله بمدينة تلمسان ، قال : أنشدنا الفقيه الإمام العالم أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن خلف بن موسى بن أبى تليد الشاطبى ، قال : أنشدنا الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر ، قال : أنشدنا مقدم الشعراء أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى لنفسه، وتوفى سنة ثلاث وأربعمائة » . ثم يسوق له بعد هذا السند الطويل أبياتا ستة يعقب عليها بكلمة قصيرة لا تجاوز السطرين .

وفى هذا السنن يجرى ابن دحية فى كتابه ، يُثقله بالأسانيد التى لو جرده منها لعاد إلى النصف أو نقص قليلا .

ثم هو لم يعمد فيه إلى تبويب وتنسيق ، بل هو ، كما وصفه فى مقدمته، قد استرسل فيه مع الخاطر ، على ما يجود به ويسمح ، ويعن له ويسنح .

وهذا أيضا من نهج المُحدِّثين المُمْلِين ، لا المؤلفين المبوِّبين .

فالكتاب كما ترى من حيث النهج حديثىّ ؛ ومن حيث الموضوع أدبىّ ، يضم إلى ذلك طرفا من أخبار تاريخية . ثم هو لم يُخله — كما يقول — من مُشكلى علمى الغريب والعربية .

وقد كتبه ابن دحية استجابة لرغبة سلطانية ، لسلطان مصر حينذاك «الكامل» ، كما أشار فى تصديره. وقد سبق أن «الكامل» ولى ملك مصر عام ٦١٦ هـ . وإن صح

أنه طلبه عَجِلًا مع تولّيه، فالكتابُ وليد تلك الأعوام اللاحقة لا يعدوها كثيرا؛ لأنه سهل المنال على رجلٍ يقول: «إنه يُملى من حفظ، ويحدّث عن سَماع، ويروى عن مشاهدة». وغير بعيد — وهو يُعدّ لمثل هذا من نشأته — أن يكون له تدوين أفاد منه حين ألّف؛ لكثرة ما وَرد فى الكتاب من سماع طويل ثقيل على الواعية. وقد لا يكون، فهو محدِّث اختُبر فى مثلها فروَى كتباً بأسانيدها.

ولا أدرى أكان قَصْره الكتابَ على كُل أندلسى وآخر مغربى شيئاً أراده منه السلطان أم أراده هو للسلطان. فإن كانت الأولى؛ وقد قالها هو؛ فما من شك فى أنه مُثيرها والمُوحى بها والمشوِّق إليها؛ ليعرِّف بفَضل آله وذَويه؛ ويَدفع نقصًا لمَسه؛ ويرفع من هوانٍ أحسَّه؛ وفى الكتاب أكثر من إشارة، تُعبِّر فى صريح عبارة، عن عِلْم الرجل باهتضام المَشارقة للمغاربة، وإنزالهم فى الأدب منزلًا غيرَ لائق، والغضّ من شأنهم الفائق.

وهو فى ذلك: إمّا نازعٌ منزِع غيره من مغاربةٍ سبقوه؛ أو مُصدر عن خاطرٍ يحدُوه. فهو حين يُطرى «ابنَ زيدون» مُقتبس قولَ «الفتح بن خاقان» غيرَ مُشير إلى ذلك الاقتباس. وكأنّ وُحدة الخاطر أنسته ما للغابر؛ فيقول والقول للفَتح: «فمن قصائده — يعنى ابن زيدون — التى ضربت فى الإبداع بسهم؛ وطَلعت فى كل خاطر ووَهم؛ ونَزعت منزعًا قصر عنه حبيب وابن الجهم».

وإما نافث عن صدر مَصدور مُلىء غيظا وحنقًا، فأراد أن يُنصف قومه فى مؤلف أراده لذلك، حين خصّهم به دون غيرهم. فكيف به لا يَقتنص الفرصة حين يجد مجال المُفاضلة يُعطيه، وإحسانَ ذويه مُواتيه. استمع إليه يعقِّب على شعر الغزال (ص ١٤٥): «وهذا الشعر لو رُوى لعمر بن أبى ربيعة، أو لبشّار

ابن بُرد ، أو العبّاس بن الأحنف ومَن سلك هذا المسلك من الشعراء المُحسنين — يريد شعراء المشرق — لا ستُغرب له . وإنما أوجب ذلك أن يكون ذكره مَنسيّا ، أن كان أندلسيّا . وإلا فما له أُنحمل ، وما حقُّ مثله أن يُهمل» .

والرجل « وطنى» بما فى معنى هذه الكلمة من معانيها الطيبة . ما نظنُّه رُزق خيراً مما رُزقه فى الشرق ، ولاسيما فى مصر . وما خلت جوانحُه من حَنين باقٍ إلى الأندلس ، يروى الفضل لغيره من بنى وطنه فيفخر ، وكأنّ نفسَه يذكر ، فيقول عن الغزال أيضا : « وأقام الغزال فى رحلته تلك مدة يتجول فى ديار المشرق ، وما انفك فى كل قطر منه من غريبة يطلعها ، وطريفة يبدعها . ثم إنه رجع إلى نفسه وحنّ إلى مَسقط رأسه وانصرف إلى الأندلس » .

وما أَصرحه حين يقول (ص ١٤٥) : « ألا نظروا — يعنى المشارقة — إلى الإحسان بعين الاستحسان ، وأقصروا عن استهجان الكريم الهجان ، ولم يُخرجهم الإزراء بالمكان عن حد الإمكان . لئن أرهفت بصائرهم البصرة ، وأرقتها الرقتان ، فقد درجنا نحن بحيث مرج البحرين يلتقيان ، فإن منهما مخرج اللؤلؤ والمرجان» .

وما أَذْكره بأهله حين يقول (ص ٢٠٤) : « وهى زبدة الشعر وخلاصته — يريد الموشحات — وخلاصة جوهره وصفوته ، وهى من الفنون التى أغرب بها أهل المغرب على أهل المَشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المُشرق» .

هذا هو قلب ابن دحية الخالص لوطنه ، وهو الذى حرّكه من غير شك لأن يشير فى مقدمته فى تصريح أو غير تصريح ، فنرى أن « الكامل » هو الآمر أو الطالب ، وأن ابن دحية بعدها هو المجيب إلى رغبة السلطان على شرط مشروط ، وهو أن يكون الكتاب خالصا لكل أندلسى ومغربى .

وما أَمَر السلطان ولا رغب، ولكنه ابن دحية سفير الغرب إلى الشرق، نشأ وفى نفسه أن المشارقة لأهله ظالمون، وكأنه لقى فى تطوافه مازاده دليلاً وملأه يقينا. وهو الوطنى الذى لم ينس وطناً بوطن، ولا أهلا بأهل، مع سابغ نعمة، وموفور رعاية. فشمّر يؤلّف هذا الكتاب. وفى ظنّى أنه كان لهذا الغرض الوطنى النبيل فى نفسه.

ولا يدفع هذا الظن أن الرجل ذو علم أندلسى مغربى، فهو يغرف من بحره. وأن فى تكليفه بمثله غير عناء و إعنات: ولكنها خمسون عاما قضاها هناك: للأندلس والمغرب منها سنو صباه وطفولته، ومثلها إلا قليلا قضاها بالمشرق، مع كمال عقل وحسن استعداد؛ وقد عاشر هنا فأطال، ولقى العلماء وتحدث إليهم، وسمع فأكثر. فما أفاده هناك أفاد مثله هنا. ولكنه أراد النصفة فحققها بهذا الإيراد الخالص لأهله، وأكدها ثانيا بالمُفاضلة يسوقها والرأى يُدلى به.

هذا هو كتاب المطرب فيما أرى مُؤلِّفَه وَضَعه له. وما أَعيب عليه ما أتمنّاه لكل مُوطن. وإنه لَنهج سليم إن حِيط بالقَصْد، ولم يُثِرْها شحناءَ مُفرِّقة.

وقد أخذ الرجل أخبارَ من جمع لهم عن سابقين راوياً عن حفظ. أشار إليهم فى الكثير وأغفل فى القليل. وما هو بشائنه، فالعـــذر مُلتمس، وما فاتتِ الإشارةَ إلا عباراتٌ تدخل على محفوظ الإنسان فتنضاف إليه، وكأنها منه حين تصدر عنه.

وقد جاء فى كتابه بطائفة لا ينتظمها زَمن، ولا تَجمعها وُحدة، حديثٌ حُرّ مختار، فيه تعريف بجديد، أو زيادة على قديم، أو اختيار من مطوَّل، أو تطويل لمُختصر، أو تدوين لمفقود، أو توثيق لموجود. وإن جاء بعضُـه حديثاً معادا أو تكرارا،

فالأدب هذا أمره ؛ يقال هنا ليُعاد هناك ، ويُفرَد مرةً ليُجمع أخرى. وهو فى كلها حلو مُستطاب ، سائغٌ غير مَمْلول .

وقد نَقَل عنه المقَّرى فى أكثر من موضع ، كما نقل عنه السيوطى .

المخطوطة :

والكتاب فى نسخة يتيمة. لانعرف غيرها إلى اليوم، يحتفظ بها المتحف البريطانى بلندن فيما يحتفظ به من مخطوطات عربية (برقم ٦٣١)، انتهى منها كاتبها حسن بن محمد بن جعفر البغدادى يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وستمائة. أى بعد وفاة المؤلف بنحو من ستة عشر عاما. وعن هذه المخطوطة مصورة دار الكتب المصرية التى نشرنا عنها الكتاب ، والأرقامُ التى فى هامش المطبوعة تذكُرلك عددَ لوحاتها ، واختلافُها حين تختلف يُحدِّثك باضطراب اللوحات فى ذلك المكان ، قبل أن نُسويها .

وقد كنت أشير على زميلىّ أن نَدع هذه المُصوَّرة الوحيدة جانباً، لأنها لم تُرزق نِدًّا. ثم أخذتُ برأيهما حين وجدتُ أن نُصوصها المُستقاة، من مَراجع موجودة تكاد تُغنى عن الأنداد ؛ وما بَقِى فالخَطْب فى تَصويبه يسير .

ولكن هذا وذاك لايرزقنا اليقين بأن الكتاب سليم فى جُملته، لم يُصَب باقتطاع، أو تَعَرّض لِمحنة من تلك المِحن الكثيرة التى تُمْنَى بها المخطوطات .

ونكاد نشك أن المخطوطة تنقص شيئا، وتضطرب فى شىء آخر. يقربنا من أولهما مانرى المقرى يذكر أنه نقله عن ابن دحية — ونظن أنه من المطرب — ثم لا نجده

فيه — أى فى المطرب — من ذلك حديثه عن أبى بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور السلمى ؛ وهو ممن ذكرهم « ابن دحية » فى « المطرب » .

يقول المقرى (٤ : ٣٠٦) : « وقال أبو الخطاب بن دحية : دخلت على الوزير الفقيه الأجل أبى بكر عبد الرحمن محمد بن مغاور السلمى . فوقع الكلام فى علوم لم تكن من جنس فنونه ؛ فقال بديها :

أيها العالم ادَّركنى سماحا ... فلمثلى يحق منك السماح
إن تخلنى إذا نطقت عيا ... فبنانى إذا كتبت وقاح
أحرز الشأو فى نظام ونثر ... ثم أثنى وفى العنان جماح
فبهزل كما تأود غصن ... وبجد كما تهز الصفاح »

وقال : « دخلت عليه منزله بشاطبة فى اليوم الذى توفى فيه وهو يجود بنفسه ؛ فأنشد بديها :

أيها الواقف اعتبارا بقبرى ... استمع فيه قول عظمى الرميم
أودعونى بطن الضريح وخافوا ... من ذنوب كاومها بأديمى
ودعونى بما كتبت رهينا ... غلق الرهن عند مولى كريم »

فهذا كله يكاد يكون متمما لحديث ابن مغاور فى المطرب ، و يكاد يكون نقل المقرى عنه ، ولكن حرفاً منه لم يرد فى مخطوطتنا .

وشىء ثانٍ إلا أنه أقطع فى الحجة، فالمقرى فيه جد صريح حين يقول (٦ : ٢٧) :

« وذكرها — أى مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى — ابن دحية « فى المطرب » وقال : إنها أديبة شاعرة مشهورة . وكانت تعلم النساء الأدب ، وتحتشم لدينها وفضلها . وعمرت عمرا طويلا . سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمائة » .

وما فى المطرب شى من هذا . وكأن صاحبة الحديث سقطت منه بحديثها .

فهذا أو ذاك ، من النقص الذى فرضناه ، ثم تيقناه ثانيا فيما ساقه المقرى عن مريم بنت أبى يعقوب ، مصرحا بأنه عن « المطرب » يدلل على ما ذهبت به الأيام من هذا الكتاب .

أما الاضطراب فدليله تحمله النسخة، وقد أشرنا إليه فى ص (١٩٥) من الكتاب عندما عادت المخطوطة لذكر « البتى » وكانت سبقت إلى ذلك (ص ١٢٤) .

اسم الكتاب :

ولا ندرى أتسميته الكتاب من تسميته للمؤلف ؛ أو هى شىء غيرها . فقد جعله « المطرب فى أشعار أهـل المغرب » ولم يكتبه كما صوره حاجى خليفة « المطرب من ... » وما نظن هذا الأخير ابتدعها .

ونقف عند هاتين يثنى سوء الظن بالناسخ عن اعتماد ما كتب ويميل بنا الميل إلى ماذهب إليه حاجى خليفة، لأن كلام المؤلف فى تصديره يكاد يملى فيه العنوان « بمن » التى هى بالسياق أليق .

وفيما أنت بين سبيلين لاتدرى أيهما تأخذ ؛ إذا « ثبت نهاية السول » يطالعك بغير هذا وذاك ؛ ويسمى الكتاب « المعرب فى أشعار أهل المغرب » .

وتسكت المراجع جملة عن ذكر هـذا الكتاب باسمه ، إلا « المقرى » و « السيوطى » فيذكرانه ولكنهما لايزيدان عن تقديمه باسم « المطرب » . كلمة واحدة لا يذكران معها سيئا .

وقد أردناه كما أراده « حاجى خليفة ظنا منا بعثوره على منقولة نقل عنها ؛ ولأن سياق المؤلف فى تصديره يعضده وأطرحنا ماتحمله النسخة ؛ لأن الناسخ — كما قلنا — لم يجمعنا على الثقة به .

والنسخة بعـــد هذا ، وإن وضح خطها وجادت حروفها نوعاً مَا ، لا تزكّى الكاتب ولا تَسمه بفهم . وما أكثر ما حَكى راسماً ؛ ونقل مُصوِّرا . وهو على قرب عهده بالمؤلف ، يكتب اسمه فيخطىء ، فيجعله « عمر بن على بن حسن » وسواء أكانت له أم لسابق سبقه ، فهى دالة عليه . وقد نُحسن فعندُّها مما يسبق به القلم ؛ وحسبه غيرهما مما فى الكتاب من هنات[1] .

وبعد :

فها هو ذا المطرب منشورا ، أردنا به النفع ، وبذلنا فيه ما وسعنا من جَهد ، وما هو إلا ركن أقمناه ؛ فإن سلم على الزمن فحمدا ، وإن جدّ عليه جديد فما أكثرنا له حمداً والمرء قد يصيب وقد يخطئ ، والغرض أوسع من أن يحاط به ، والهدف أبعد على الرامين ، فلا أقل من كلمة مع التوفيق ، وإعذار على ما فات .

ولى زميلان نَصبا معى وما قَصّرا ، وكان للزميل الدكتور حامد عبد المجيد ، بعد جولاته الموفقة معنا فى تحقيق النص وتحريره وتوجيهه ، جولة أخرى انفرد بها ، وهى إعداده الفهرس الشامل للكتاب ، وما هو بالجهد القليل !

ثم ما أظننا بما عملنا إلا أنصفنا أبا الخطاب فيما هدف إليه ، فقد ألف هذا الكتاب ليشيع بين الناس فيعرفوا لقومه ما عرف ، ويؤمنوا معه أنهم مجودون محسنون ، وأنهم جديرون بنظرة عادلة لا تَغمطهم حقًّا ، ولا تسلبهم فضلا .

---

(١) وانظر اللوحات اللاحقة .

وختاما

فإلى أب النهضة الأدبية—الدكتور طه حسين — ومنه الرأى ، وعنه التوجيه، رد عَملنا ، بعد ما أسدتى فيه ، وشجّع عليه ، ليطمئن قلبه على تراث للعرب أثير عنده ، يرجو بعثه ، ويبغى بثّه .

والله تعالى ولينا ووليه ، فيما أردناه وأراد . منه العون وإليه التوفيق ،،

إبراهيم الابيارى

القاهرة ديسمبر سنة ١٩٥٤

المراجع

الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، لابن عبد البر أبى عمر يوسف بن عبد الله .

الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانى أحمد بن على .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوى محمد بن عبد الرحمن .

البداية والنهاية، لابن كثير اسماعيل بن عمر.

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطى عبد الرحمن بن أبى بكر .

تاريخ الأمم والملوك، للطبرى أبى جعفر محمد بن جرير .

تذكرة الحفاظ ، للذهبى أبى عبد الله محمد بن أحمد .

التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار أبى عبد الله محمد بن عبد الله .

تهذيب التهذيب ، لابن حجر أحمد بن على .

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، للسيوطى عبد الرحمن بن أبى بكر .

الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) للمقريزى أحمد بن على .

دول الاسلام، للذهبى، أبى عبد الله محمد بن أحمد.

ديوان ابن عنين محمد بن نصر .

الذيل على الروضتين ، لأبى شامة أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل .

سير أعلام النبلاء ، للذهبى أبى عبد الله محمد ابن أحمد .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى عبد الحى .

صلة الصلة ، لابن الزبير أبى جعفر أحمد .

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، للعينى أبى محمد محمود بن أحمد .

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، للغبرينى أبى العباس أحمد ابن محمد .

الفلاكة والمفلوكون ، للدبلجى أحمد بن على .

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، لحاجى خليفة ابن عبد الله مصطفى .

لسان الميزان، لابن حجر العسقلانى أحمد بن على .

مجلد المجمع العلمى العربى بدمشق (ج ١٩ : ٢٢١)

مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية (ج ١ : ١٦١)

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، لسبط بن الجوزى يوسف بن قيز . أوغلى .

مسالك الابصار فى أخبار ملوك الأمصار ، للعمرى أحمد بن يحيى .

معجم الأدباء (ارشاد الأريب الى معرفة الأديب) لياقوت بن عبد الله الحموى .

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، لابن واصل محمد بن سالم .

النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، لابن دحية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى برد أبى المحاسن يوسف .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ، أحمد بن محمد.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان أحمد .